تنسيق الإصلاح

الاجتماعي في مصر

لسعادة محمد الشماوي بك
المستشار الفني لوزارتي الاشغال والشئون الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »

« لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس »

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »

« ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان »

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميرا »

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى »

سيدي سادتي : بهذه الآيات البينات من كتاب الله تبرز الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي قوية منيعة ومرتبطة ممتزجة . وتقوم الدعوة على أساس من البر الخالص والعدل المطلق والتعاون على الاصلاح والنهي عن المنكر ، والتحذير من الاسراف في الترف ومن التفاني في الفسوق والزهو بعرض الزائل والزخرف الباطل ، والحض على التضحية بالمال لترفيه عن ذوي الحاجة وردّ الضر الذي مار على الفقير تخفيفاً للبؤس وإصلاحاً لحال السواد الاكبر من أفراد الأمة ، وعلى أسباب الصفح والبر والتسامي بالنفس الى السمو والتراحم لدوام الحياة

الاجتماعية على قواعد مدعمة بالتقوى والصبر على الشدائد وضم الصفوف لتصد الأحداث مهما تعظم ، يؤازرها إيمان قوي وبشد من عزيمتها روح سامية وثابة

* * *

« مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منهُ تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر »

« لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر ، أو ليسلّطنّ الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يُستجاب لهم »

« كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته »

وبهذه الكلمات المحكمات من آثار الرسول الكريم الذي جاء بالهدى ودين الحق يُثبّتُ هذا المصلح الاجتماعي الكبير دعوة الإصلاح في القلوب ويدعو إلى التعاون الاجتماعي دعوة صريحة ويجعلهُ أساس العمران ويشعر الفرد بواجبه نحو نفسه ونحو الأمة بصلح بصلاحها ويفسد بفسادها ويكدح للخير العام ويتألم للأحداث التي تصيب بني قومه فتنغص من مضجعه وتحرمهُ لذة ما قد ينعم فيه من جاه وثراء ، ويفرض العمل للاصلاح فرض عين لا يفرق بين القائمين بالأمر وأفراد الرعية ، ويجعل لهؤلاء ولهؤلاء ميداناً للاصلاح الاجتماعي يعملون فيه ويحتملون أعباءه ويُسألون عما قدموا من نفع وما دفعوا من ضر وما أصلحوا من أمر ، وما أقاموا من عدل وما حفظوا من أمانة وما ضيعوا من خيانة

* * *

« وليكن أحب الأمور اليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة . وإن سُخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة . وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للاعداء : العامة من الأمة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم »

« ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الاحسان في الاحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة »

« ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولّهم محاباة وأثرة ، وألزم الحق من لزمتهُ من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع »

وبهذه العبارات البينات والحكم الرائعات من عهد الأمام علي للأشتر النخعي حين ولاه مصر يُوضع أساس الحكم الصالح على قواعد العدل المطلق والحق الصريح ، دون نظر لأي اعتبار آخر ما عليه المصلحة العامة لسواد الشعب ، وما تقتضيه هذه المصلحة من إنشاء المرافق

واختيار لذوي الدماء الحسن والتنزه عن الخيانة والأثرة والتزام الحق وحده وتقوى الله وحده، وخليق بدولة تقوم على هذا الأساس المتين وهذا الركن الركين أن يسمو بنيانها على كل بنيان، وأن تبقى على الزمان

وما أحوجنا — ونحن نترسم طريق الاصلاح وامتره، ونلقي في جنبات الوادي صرخات مدوية تدعو اليه ونحيه النفوس وترد القوم عن طريق الغواية وتحملهم على توخي المنهج القويم في الحياة وفي ضرائق الحكم — أن نهتدي في دعوتنا بهدى الكتاب والسنة وتتأثر سبيل من من رفعوا علم الاصلاح خفاقاً وملكوا الدنيا عدلاً وأمناً عاش الناس في أكنافهما حقبة من الزمان وادعين ناعمين وأعزاء مكرمين

سيداتي وسادتي: أخذت مصر بأسباب نهضة شاملة يرجى أن تتناول ميادين النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي جميعها، وأن تتغلغل روحها في مرافقها كلها. وبدأت البلاد تحس العزة والكرامة. يثير هذا الاحساس ماض مجيد، ويحفزها الى استكمال وجوه الاصلاح في شتى الميادين أمل في المستقبل وطيد. والبلاد في حاضرها تواجه أحداثاً جساماً تشد عزمها وتربي فيها قوة الاحتمال وتجعلها أكثر شعوراً بحاجتها لهذا الاصلاح الاجتماعي الذي تنشده تستحث خطاه، وتذيع مبادئه وتوسع آفاقه وتأمل أن تقيم أركانه على قواعد ثابتة باقية على الزمان. ومصر في نهضتها هذه تنوء بأعباء الماضي القريب، وتواجه أكبر مشكلات الحاضر، وتهيأ لاحتمال أكبر ما يتمخض عنه المستقبل من أحداث. وقد زاد في تعقيد مشكلات الحاضر حاجات الحياة المتزايدة وأعباء الاستقلال ووعورة طريق الاصلاح. ومصر في الوقت ذاته تنوء بتركة ثقيلة خلفها للجيل الحاضر ملابسات الجيل الماضي وما كان يرسف فيه من أغلال عدت من كيانه ونشاطه وأضعفت من إنتاجه المادي والفكري على السواء، والبلاد تحتمل هذه الأعباء في وقت هي أحوج ما تكون فيه الى التحفز لتخطو خطوات واسعة مطردة، تلاحق بها ما تقدم من الشعوب الناهضة وتعوض بها ما فاتها من إصلاح

ومصر قبل الشرق تتوق الى أن تلقي اليها بمقاليد الزعامة راضياً مطمئناً وتتخذها مثله الأعلى في نظام الحكم، وسياسته ونظام التعليم وخططه ومناهجه ونظام الاجتماع ووسائل علاج مشكلاته وطرائق الاصلاح في مختلف آفاقه. وهذه الزعامة والقدوة تقتضيانها النهوض بالأعباء كاملة وأن تثبت جدارتها للمقام الممتاز الذي اختطه باعتبارها حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ويقتضيانها أن تكون مثل الصالح والقدوة الحسنة في كل ناحية من نواحي النشاط فيها. ومصر في دور الانتقال في كل مرفق من مرافقها في الثقافة والتفكير والاقتصاد وفي حياتها الاجتماعية وحياتها السياسية، وهي تجتاز هذا الدور في أحوال قاسية وفترة لا تسمح بالتردد ولا التواني

ولا التواكل، ويقتضيها هذا الدور مناعة في الأخلاق العامة والخاصة وقوة احتمال وشجاعة وإقداماً واعتماداً على النفس وتضحيات فدحت ووضع المصلحة العامة فوق كل اعتبار وتوافر الجهود ورعايتها وصيانتها من كل عبث تمليه الشهوات وضعف الشعور بالمسؤولية

ومصر على ما أفاض الله على واديها من الخصب وما تيسر لأهليها من أسباب العيش يشيع في جوانبها الفقر وتحيا الأغلبية الكبرى من سكانها في عوز وبؤس لا تكاد تظفر بالكفاف، تفتك بها الأمراض ويسودها ظلام الجهل. ومعظم ثروتها ليست في يد أبنائها. وريفها لا يزال مباءة لكثير من الأمراض الاجتماعية والجسمانية الفتاكة، مع أنه بضع اليد العاملة التي يقوم على إنتاجها مسرح الثروة في البلاد

ومصر بالرغم من هذا كله لا تزال تتردد في الخطوة التي تخطوها نصلاح الحال ولا تزال الجهود التي تبذل بعيدة عن أن تحقق إصلاحاً اجتماعياً شاملاً، ولا تزال دعوة الاصلاح تلوكها الألسن وقد تتلقاها بعض القلوب ولكنها لا تكاد تخرج إلى حيز العمل، بل إن فكرة الاصلاح لا تزال غامضة لم تكيفها دراسة عميقة في أمراضنا الاجتماعية لتعرف نوع العلاج الذي يلائمنا ويحدث أثره العاجل في نهضتنا ويواجه مشكلاتنا العامة والخاصة ويجدد القوى ويحفز الهمم. ولا تزال نرجئ الاصلاح ارتجالاً ونذكره لماماً في بعض المناسبات، دون أن نضع له برنامجاً شاملاً يتناوله في شتى مناحيه ويسير به في طريقه المرسومة صوب أهدافه الموضوعة

ولا تزال الهيئات التي تعنى ببعض نواحي الاصلاح محرومة التأييد الأدبي والمادي الذي يمنها على النهوض بمهمتها

ولا تزال برامج أحزابنا التي تتداول الحكم تكاد تكون خالية من وضع برنامج عملي لتحقيق الاصلاح الاجتماعي، العمل على دعم أركانه وجعله سياسة قومية ثابتة تسمو على الخصومات وتستند الى وسائل إيجابية فعالة صالحة للتنفيذ

ولا يزال يعوزنا أهم وسيلة لتحقيق هذا الاصلاح والمضي فيه، وهي تنسيق الجهود المبذولة أو التي تبذل في سبيله تنسيقاً مطبوعاً بطابع التعاون على البر والتقاني في الواجب وموسوماً بوحدة الغرض واستقامة التوزيع، تؤازره قوة الارادة والرغبة في التكافل

ومن أخطر ظاهرة في حركة الاصلاح الاجتماعي في مصر انعدام البرنامج الشامل ونقص الدراسة وفقدان التنسيق وضعف الاشراف وتبلبل الرأي في نوع الاصلاح الذي تحتاج اليه وخطة توجيهه وامتناع الاطراد في العمل متابعة البناء والتجديد

وقد أتيحت محاولة لتحقيق هذا الاشراف والتنسيق في ميادين الاصلاح الاجتماعي في أوائل سنة ١٩٣٦ عندما أصدرت الحكومة المشرفة بإنشاء مجلس أعلى للاصلاح الاجتماعي

ولكن هذه الخطوة لم تعدُ استصدار تشريع سقط لعدم عرضه على البرلمان ثم طوي المشروع ثم بدأت بعد أربع سنوات أو مايقرب منها محاولة أخرى أعظم خطراً وأبعد أثراً وأكثر دلالة على الاهتمام الحيوي بحركة الاصلاح الاجتماعي، وهي إنشاء « وزارة الشئون الاجتماعية » ولا تزال هذه الوزارة تستكمل عدتها وتهيء قوتها لمكافحة الادواء الاجتماعية التي تهدد كيان الامة، وقد أنشيء لهذه الوزارة على أثر تكوينها مجلس أعلى لتحقيق بوجوده سياسة التوفر على دراسة مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى، ووضع أسس السياسة العامة التي تقوم الوزارة على تنفيذها. ولكن هذا المجلس لم يتم تأليفه ومن ثم لم ينعقد للآن، وبقينا حيث كنا نرتجل الاصلاح ارتجالاً دون أن نضع له سياسة ثابتة او نترسم في سبيله خطا واضحة المعالم بيّنة الأهداف، نتيجة بحث شامل ودراسة عميقة لمشكلاتنا الاجتماعية المختلفة

سيداتي وسادتي: إن مهمة الاصلاح الاجتماعي في مصر واسعة الآفاق متشعبة النواحي تكاد تتناول كل ناحية من نواحي حياتنا العامة والخاصة، والمشكلات الاجتماعية كثيرة وخطيرة وهي تتزايد وتتعقد وتزيد في خطرها أنها لم تعالج علاجاً ناجعاً بل لم تدرس دراسة عميقة شاملة، فلدينا مشكلة إصلاح الأسرة المصرية والعمل على أن تكون عنصراً فعالاً في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وتوفير أسباب التماسك بينها والقضاء على عوامل الانحلال فيها، وكل إصلاح لا يقوم على أساس صلاح الأسرة مقضيٌّ عليه بالفشل المحقق. وعندنا المرأة وهي عماد الأسرة أحوج ما تكون الى إعداد صالح يهيئها لأن تقوم بمهمتها الاصلاحية السامية في الحياة وفي محيط الأسرة وفي المحيط الاجتماعي تبني الرجال وتنشيء الجيل نشأة قوية صالحة

ولدينا مشكلة الشباب وكيف نوجهه توجيهاً يمكن البلاد من الانتفاع الكامل بثمرة جهوده في ميادين الثقافة والاقتصاد والاجتماع وتهيئه ليكون عدة الوطن في الملمات ومِلأ فراغه بالعمل المثمر والتفكير السليم وبغرس فيه فضيلتي الايثار والطموح، ولدينا مشكلة المتعطلين من المثقفين وهي تنذر بالشر كلما تقدم الزمن وتراخينا في حلها على وجه يقي البلاد شرها وعلى الأخص من الوجهة الاجتماعية، دون الحد من انتشار التعليم

ولدينا مشكلات الريف وهي في ذاتها أكبر المشكلات وأبعدها أثراً في حياتنا بوصفنا أمة تريد ان تعيش عزيزة الجانب كريمة قوية، وعلاج هذه المشكلات يتناول علاج البؤس والفقر والمرض والجهل وما تجره من ويلات أهمها انتشار الاجرام وضعف الانتاج وخراب الريف. ولدينا مهمة تنظيم الاحسان الذي يبذل على غير هدى وفي غير سبيله فيذهب ضياعاً دون أن يجني منه نفعاً أو يندفع به غائلة

ولدينا الانحلال الخلقي وما يجره من ضعف صفات الرجولة وعدم الاعتماد على النفس وقلة

الاقدام وضعف روح التضحية وضياع التقة والاسراف في الشهوات . ولدينا غير ذلك كثير مما لا يحده الحصر من نقائص اجتماعية كل نقيصة منها خليقة بأن تشغل شعباً بأسره وتقض مضجعه وتقوض من أركان نهضته . ولا يجوز ان تكون مهمة الاصلاح الاجتماعي وقفاً على الحكومة أو على هيئة بعينها ، ولكنها مهمة تقع على عاتق الحكومة والجماعات والأفراد وكل قادر على ان يضطلع بها بقدر ما يتيسر له وما توافر له من وسائل وما فرض عليه من واجبات . وعلى الحكومة أن تجعل الاصلاح الاجتماعي في مقدمة المسائل التي تعنى بها وتوفر لها من المال والجهود والكفايات ما ينهض بها . وعلى كل وزارة أن تضع لنفسها برنامجاً للاصلاح الاجتماعي يتصل بنوع العمل الذي تباشره ، وعلى كل هيئة عامة أن تخص الاصلاح الاجتماعي بنصيب من كسبها تتناول به إصلاح شأن العاملين فيها . وعلى أصحاب المصانع والمتاجر والمزارع الكبرى ان يخصصوا جانباً من جهدهم وكسبهم للعناية بالنواحي الاجتماعية الخاصة بعالمهم والتي ترمي لاصلاح شأن البيئة التي يتناولها نشاطهم الاقتصادي .

وعلى الهيئات المحلية أن تخصص في ميزانيتها أموالاً للمساهمة في الاصلاح الاجتماعي في دائرة عملها وأن تضع برنامجاً لهذا الاصلاح وتقوم على تنفيذه . وعلى رب الأسرة أن يكون داعية إصلاح في محيط أسرته ، وعلى المثقفات من فتياتنا ونسائنا أن ينهضن بهذه المهمة التي هي واجب وطني مقدس يأتي في المرتبة الأولى من شئون الحياة ومشاغلها

وعلى البلاد حكومة وشعباً أن تحشد القوى وتعد العدة للكفاح في هذا الميدان المترامي الأطراف الذي يقتضينا كل جهد وكل تضحية وكل بذل . فميدان الاصلاح الاجتماعي هو ميدان الجهاد الأكبر : جهاد النفس والفقر والاضمحلال الخلقي والجهل والظلم ، وبغير هذا الجهاد — نقوم به متساندين بإيمان عميق — لن تتوافر لنا القوة التي نستطيع بها أن نكافح عدونا ونكفل سلامة وطننا وتهيىء له أسباب القوة والعزة والحياة الحرة الكريمة

سيدي وسادتي :

تلك أمثلة سقتها عن طائفة من المشكلات التي نواجهها وما تتطلب من عناية وما تقتضيه من جهود لا تستقل بها طائفة ولا تقع على عاتق هيئة بعينها . بل يجب أن تتعاون البلاد على حلها وعلاجها مستعينة بما توافر لها من قوى كامنة وظاهرة . ويجب أن يكون الشباب المثقف رسول الاصلاح في هذه البلاد جميعها ، كل في دائرة نشاطه .

ويجب أن يوضع هذا الاصلاح الشامل برنامج كامل ، صالح للعالم بتناوله في جميع نواحيه بما يحقق التوازن والتنسيق ، ويضم الجهود ويوجهها الى غايتها تحت إشراف دقيق ، تمليه روح اجتماعية وبة

وهنا تظهر وظيفة وزارة الشئون الاجتماعية واضحة والحاجة اليها بيّنة ؛ فهي في نظري وزارة تنسيق للاصلاح وتنظم له تقصاه في نواحيه المختلفة وتستبين بكل الهيئات على تحقيقه وتضع السياسة العامة التي يسير عليها وتشرف على تنفيذه وعلى أنه يجري طبقاً لهذه السياسة المرسومة وتمدّ العاملين على الاصلاح بالنصيحة والارشاد والعون المادي والتأييد الأدبي وتضع من التشريع ما يحقق هذا التنسيق والتنظيم ويوجه الاصلاح وجهته بما يلائم حالتنا وبيئتنا وتقاليدنا الصالحة ، بما يجتنبنا الفوضى والاضطراب والثورة والاشتغال بتوافه الامور والزخرف الباطل

ولعلّ خير ما يبين وظيفة وزارة الشئون الاجتماعية ومجلسها الاعلى ما تضمنه التشريع الذي وضع في سنة ١٩٣٦ ولم تكتب له الحياة وتنفذ وهو التشريع الذي أنشأ المجلس الاعلى للاصلاح الاجتماعي وجعل مهمته « تحري كل ما من شأنه ان يبين بأي وجه من الوجوه على تقدم البلاد الاجتماعي » واختصه « بمراقبة أحوال التطور الاجتماعي للبلاد والنظر في الوسائل والتدابير والاصلاحات التي ترمي الى توجيه هذا التطور توجيهاً يتسق مع خصائص الشعب المصري وتقاليده وملكاته » كما اختصه بالسعي « في التوفيق بين مقوّمات الحياة الاجتماعية للبلاد وبين آثار التقدم المادي . وما استحدث من وجوه العمل الاقتصادية وحوان الحياة الجديدة » . وناط به على الاخص « بحث نظام الاسرة ودراسة الاصلاحات التي تؤكد تماسكها والمحافظة على كيانها وصيانة حقوق الولاية فيها » وأوجب « أخذ رأيه مقدماً في كل مشروع قانون ولائحة ذات صفة أومرمى اجتماعيين أو من شأنه التأثير في أحوال البلاد الاجتماعية » وأجاز له أن يقوم مباشرة « بدراسة أية مسألة اجتماعية أو إجراء بحث أو تحقيق بشأنها والاستعانة بالادارات الحكومية المختصة في هذا البحث وأن ينصح بضرورة إصدار قانون او اتخاذ تصرف إداري معين » . ويجب أن تختلف وزارة الشئون الاجتماعية عما ينقل كاهلها من تفاصيل العمل الاداري لتتفرغ لهذه المهمة الخطيرة ، وأن تزود بالكفايات التي تستطيع بها أن تسير بسياسة الاصلاح قدماً نحو الكمال

إن شعور الأمة للمزايد بحاجتها الى الاصلاح الاجتماعي لدليل على حيويتها ، وما على الداعين للاصلاح من سبيل إلا أن يستغلوا هذا الشعور ويحشدوا قواهم ويعملوا للاصلاح متساندين ، يحزمهم كمو الغاية والتفاني في العمل على سلامة الوطن . وفقنا الله لخير الخالص وهدانا سواء السبيل ، ووقانا شرور الفسوق والاثم والعدوان ، وأعاننا على حل هذه المشكلات الاجتماعية الخطيرة حلا يوفر للبلاد رخاءها وسلامتها وعزّها ويجنبها الثار والزلل وعوامل الانحلال والتخاذل والشقاق : « إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »